وبالإسناد: أَنَّ الفرنج أسروا ولداً لامرأةٍ من أهل هَمَذَان، فجاءت إلى الشيخ يوسف باكيةً، فصبَّرها، فلم تَصبِرْ، فقال: اللهم فُكَّ أسره، وعَجِّلْ فَرَجَه. ثم قال لها: اذهبي إلى دارك تجديه بها. فذهبت، فإذا ولدُها في الدَّارِ، فعجبت، وسألته، فقال: إني كنت الآن بالقُسْطَنْطينية العُظْمى، والقيود في رِجْلَيَّ، والحُرَّاس عليَّ، فأتاني شخصٌ ما رأيته قبل، واحتملني وأتى بي إلى هنا كلَمْح البَصَر. فجاءت إلى الشيخ، فقال لها: ﴿أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ﴾ [هود: ٧٧] رحمة الله عليه.

السَّنة السَّادسة والثلاثون وخمس مِئَة

فيها في المحرَّم كانت وقعةٌ عظيمة بين سنجر وكافر تُرْك؛ [أخذ الله للمسترشد بالثار، وأحَلَّ به الهلاك والبوار، ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُوْلِي ٱلْأَبْصَٰرِ﴾] [آل عمران: ١٣][1] وسبَبُها أَنَّه كان بما وراء النَّهْر الغُزُّ؛ وهم طائفةٌ من التُّرْك بنواحي سَمَرْقَنْد في مروجها ومراعيها، ولهم أموالٌ كثيرة ومواشٍ، وأهل تلك النَّاحية ينتفعون بهم وهم يَعِفُّون عن مالِ غيرهم، ولا يطلقون دوابَّهم في زَرْعِ النَّاس، ولا يُؤْذون أحداً. وبلغ سنجر خبرهم، فجهَّز إليهم العساكر، فأوقعوا بهم، ونهبوا أموالهم، وسَبَوْا نساءهم، وهتكوا البناتِ، وقتلوا منهم طائفةً، وانحازوا إلى ناحية أروجند[2]، وبعثوا مشايخهم إلى سنجر، وقالوا: نحن قومٌ أهلُ صحارى وبراري وخراب، لا نؤذي أحداً، ولا نخيف السَّبيل، فكُفَّ عنا ونحن نجعل لك في كلِّ سنة خمسة آلاف فرس، وثلاثين ألف رأس من الغنم، وكذا وكذا من المال. فلم يلتفت إليهم، وأطمعه أمراؤه فيهم، فعاد مشايخهم وأخبروهم، فقصدوا خاقان ملك الخطا مستصرخين به، وأطمعوه في بلاد الإسلام، فجمع، وسار معهم في سبع مئة ألف مقاتل، وكان سنجر قد قتل أخا خوارزم شاه، وبين خوارزم شاه وخاقان هُدْنةٌ ومصاهرة، فانضمَّ إلى خاقان

= كذلك السمعاني فيما نقله عنه الذهبي في «سير أعلام النبلاء»: ٢٠/ ٦٨. وقد أورد هذه القصة بلفظها هذا مع خبر المرأة الآتي الشعراني في «طبقاته»: ١/ ١١٧، وعنه النبهاني في «جامع كرامات الأولياء»: ٢/ ٢٨٩.

(١) ما بين حاصرتين من (م) و(ش).

(٢) في (ع) أورصد، وفي (ح) أروجند، ولم أقف عليها.

في خمسين ألفاً، وبلغ سنجر، فجمع، وقطع النهر في مئة ألف مقاتل، والتقى الفريقان في صحراء سَمَرْقَنْد، وكان يوماً عظيماً لم يُرَ مِثْلُه في جاهليةٍ ولا إسلام، واقتتلوا قتالاً شديداً، وانكشف سنجر وقد قُتِلَ عامَّةُ أصحابه، وانهزم في ستة أنفس، وأسرت زوجته وأولاده، وجواريه وابنته، وهُتك حريمه، وقُتِلَ عامَّةُ أمرائه، وقتل معه اثنا عشرة ألف عِمامة كلُّهم رؤساء وفقهاء؛ فيهم الحسام بن مازة[1]، وأُسر أبو الفَضْل الكَرْماني؛ صاحب «الجامع الكبير».

وعبر خوارزم شاه واسمه أنزاك[2] بَلْخ، ونَزَلَ فيها مراغمةً لسنجر، فَنَهَبَ وقتل وسبى خَلْقاً لا يحصون، ومضى سنجر إلى تِرْمِذ، فلما دخلها افتقد أهله، فلم ير أحداً، فسأل عن الأُمراء، فقيل: قُتِلوا، وأُخذ من خزائنه، وأمواله وذخائره وخيله، ولم يُفْلت إلا في ستة أَنْفُس، وأقام أياماً لم يجد ما يأكل. وكانت هذه الوقعة سببَ بواره.

ووصل الخبر إلى بغداد، فانكسرت هِمَّة مسعود، وذَلَّ.

وعاد صاحب خوارزم إليها، ونزل خاقان في مروج سمرقَنْد، وجَمَعَ إليه الغُزَّ، واقتسموا الأموال والغنائم، وأُحصي مَنْ قُتِلَ من أصحاب سنجر، فكانوا سبعين ألفاً، وأخذوا من النِّساء عشرة آلاف امرأة، وقتل أربعة آلاف.

وكان المقتفي قد غَضِبَ على وزيره ابنِ طِراد، وعَزَلَه، فدخل على مسعود، وسأله أن يشفع فيه إلى الخليفة، ويُعيده إلى داره، فقال مسعود لوزيره: خُذْه، واذهبْ به إلى الخليفة، وقُلْ له: إن سنجر ومسعوداً يسألان أمير المؤمنين فيه. فدخل وزيرُ مسعود على الخليفة، وقبَّلَ الأرضَ، وأدَّى الرِّسالة، وقال له: خُذْه، وإن كان قد بدا منه سيئة فأمير المؤمنين أهل العفو عنه، وما زالت العبيد تجني والموالي تعفو. فَشَرَعَ الخليفة يُعِدُّ سيئاته، والوزير يقول: ﴿أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَكُمْ﴾ [النور: ٢٢] فقال الخليفة: ﴿عَفَا ٱللَّهُ عَمَّا سَلَفَ وَمَنْ عَادَ فَيَنتَقِمُ ٱللَّهُ مِنْهُ﴾ [المائدة: ٩٥] قد عفونا عنه بشفاعة السُّلْطانين.

---

(١) في (ع) و(ح): ابن مامه، وهو خطأ، وسيأتي اسمه على الصواب في ترجمته ص ٣٣٥ من هذا الجزء.

(٢) كذا في (ع) و(ح)، ولم أتبينها.

وحجَّ بالناس نظر الخادم.

[فصل: وفيها توفي

أحمد بن محمد بن علي[١]

ابن محمود، أبو سَعد، الصوفي، الزَّوْزَني.

ولد في ذي الحِجَّة سنة تسع وأربعين وأربع مئة، وسمع الحديث الكثير، وتوفي يوم الخميس تاسع عشرة شعبان، ودفن يوم الجمعة عند رباط جده أبي الحسين الزَّوزني حذاء جامع المنصور.

سمع القاضي أبا يعلى بن الفرَّاء، وغيره. وقد تكلم فيه أبو سَعد بن السَّمْعاني، فقال: كان يشرب.

قال جدي: ولا أدري من أين كان له ذلك، ولا يلتفت إلى ابن السمعاني، فإن أبا الفَضْل بن ناصر قال: رأيته في المنام وعليه ثياب حسنة، فقلت له: ما فعل الله بك؟ فقال: غفر لي. فقلت: وأين أنت؟ فقال: مع أبي في الجنة][٢].

فصل: وفيها توفي

إسماعيل بن أحمد[٣]

ابن عمر بن أبي الأشْعث، أبو القاسم، السَّمَرْقَنْدي.

ولد بدمشق في رمضان سنة أربع وخمسين وأربع مئة [وسمع شيوخ دمشق، ثم قدم بغداد فسمع شيوخها، وكان دلالاً يبيع الكُتُب][٤]، وكان فيه يقظة، وله معرفةٌ بالحديث.

وقال أبو العلاء الهَمَذَاني: ما أَعدِلُ به أحداً من شيوخ خراسان ولا العراق.

---

(١) له ترجمة في «الأنساب»: ٦/ ٣٢٢، و«المنتظم»: ١٠/ ٩٧-٩٨، و«مشيخة ابن الجوزي»: ٩٩-١٠٠، و«سير أعلام النبلاء»: ٢٠/ ٥٧-٥٨، وفيه تتمة مصادر ترجمته.

(٢) ما بين حاصرتين من (م) و(ش)، وانظر «المنتظم»: ١٠/ ٩٧-٩٨، و«مشيخة ابن الجوزي»: ١٠٠.

(٣) له ترجمة في «تاريخ ابن عساكر» (خ) (س): ٢/ ٨١٩، و«المنتظم» ١٠/ ٩٨-٩٩، و«الكامل»: ١١/ ٩٠، و«سير أعلام النبلاء»: ٢٠/ ٢٨-٣١، وفيه تتمة مصادر ترجمته، وقد سلفت ترجمة أخيه أبي محمد ص ١٦٢.

(٤) ما بين حاصرتين من (م) و(ش).

وقال: رأيتُ النَّبيَّ ﷺ في المنام، وهو مريضٌ، وقد مدَّ رِجْله، فجعلتُ أُقَبِّل أخمص قَدَمَيْه وأُمرِّغ وجهي عليهما، فحكيت هذا المنام لأبي بكر بن الخاضبة، فقال: أَبْشِرْ يا أبا القاسم بطُول البقاء، وانتشار الرِّواية عنك لأحاديث رسولِ الله ﷺ، فإنَّ تقبيل قدميه اتِّباعٌ لأَثره، وأما مَرَضُه ﷺ، فَوَهْنٌ يحدُثُ في الإسلام. فما أتى على هذا إلا قليلٌ حتى استولى الفرنج على بيت المقدس.

وكانت وفاته ليلة الثلاثاء سادس عشرين ذي القَعدة عن اثنتين وثمانين سنة وثلاثة أشهر، ودفن بباب حَرْب [في مقام الشهداء][1]، غربيّ بِشْر الحافي [وهذه المَقْبُرة يسميها أهل بغداد مقابر الشهداء، يزعمون أن فيها قبور قوم شهدوا مع عليٍّ عليه السَّلام قتل الخوارج بالنّهروان وارْتُثُّوا[2] في الوقعة، فلما رجعوا أدركهم الموت في هذه المقبرة. قال الخطيب: كان حمزة بن محمد بن طاهر ينكر هذا ويقول: لا أصل له[3].

سمع ابنُ السَّمَرقَنْدي من ابن النّقور[4] وغيره][1]، وكان يُنْشد: [من الطويل]

وأَعْجَبُ ما في الأَمْرِ أَنْ عِشْتُ بعدهُمْ ... على أنَّهم ما خَلَّفوا فيَّ مِنْ بَطْشِ

الحسام [عمر بن][5] عبد العزيز ابن مازة[6]

إمام الحنفية ببخارى، وصَدْرُ الإسلام.

كانت له الحُرْمة العظيمة، والنِّعْمة الجليلة، والمال الكثير، والتَّصانيف المشهورة، وكان الملوك يَصدُرون عن رأيه.

---

(١) ما بين حاصرتين من (م) و(ش).

(٢) ارتث فلان: حمل من المعركة جريحاً وبه رمق. «معجم متن اللغة»: ٢/ ٥٤٦.

(٣) «تاريخ بغداد»: ١/ ١٢٦-١٢٧، وانظر «المنتظم»: ١٠/ ٩٩، وحمزة بن محمد بن طاهر هو الدقاق، محدث، صدوق، توفي سنة (٤٢٤هـ)، وانظر ترجمته في «تاريخ بغداد»: ٨/ ١٨٤-١٨٥.

(٤) قال ابن عساكر في «تاريخه»: ٢/ ٨١٩: سمعته مرَّة يقول: أنا أبو هريرة في ابن النقور. يعني لكثرة ملازمته له وسماعه منه، فقلَّ جزء قرئ على ابن النقور إلا وقد سمعه منه مراراً.

(٥) ما بين حاصرتين ليس في (ع) و(ح)، واستدركناه من مصادر ترجمته، وقد جاء اسمه على الصواب عند ابن تغري بردي في «النجوم الزاهرة»: ٥/ ٢٦٨، وهو كثير النقل عن سبط ابن الجوزي في «المرآة».

(٦) له ترجمة في «الكامل»: ١١/ ٨٦، و«الجواهر المضية»: ٢/ ٦٤٩-٦٥٠، و«سير أعلام النبلاء»: ٢٠/ ٩٧، و«تاج التراجم»: ١٦١-١٦٢، وفيهما تتمة مصادر ترجمته.

ولما عَزَمَ سنجر على لقاء الخطا أخرجه معه، وفي صُحْبته من الفقهاء والخطباء والوعَّاظ والمُطَّوِّعة ما يزيد على عشرة آلاف، فَقُتلوا عن آخرهم، وأسروا الحسام وأعيانَ الفقهاء، فلما فَرَغَ المصافُّ أحضرهم ملكُ الخطا، وقال: ما الذي دعاكم إلى قتالِ مَنْ لم يقاتلكم، والإضرار بمن لم يضرَّكم؟ فأنتم سببُ الفساد؛ لأنكم تحرِّضون على قتال من لا آذاكم. فضرب أعناقَ الجميع، رحمهم الله تعالى.

محمد بن محمد بن أبي الوفاء[١]

القاضي الأَصبهاني، ولي القضاءَ بعَسْكَر مُكْرَم[٢]، ودرَّس بالنِّظامية، وكان حَسَنَ السِّيرة، فاضلاً، وقيل: تأَخَّرت وفاتُه إلى سنة سبعٍ وثلاثين، ومن شِعْره: [من المتقارب]

إذا لاحَ مِنْ أَرْضِكُمْ بُرْقَةٌ ... شَمَمْتُ الوِصالَ بإقبالها
ولو حَمَلَتْني الصَّبا نحوكُمْ ... تعلَّقُ رُوحي بأَذْيالها

هبة الله بن أحمد بن عبد الله[٣]

ابن علي بن طاوس، [أبو محمد، المقرئ، البغدادي.

انتقل والده إلى دمشق، فأقام بها، فولد هبة الله في سنة اثنتين وستين وأربع مئة، وكان فاضلاً، قارئاً، حسن التلاوة، وختم القرآن عليه خلق كثير، وأملى الحديث و][٤] توفي في المحرَّم، ودفن بباب الفراديس، وحَضَرَه خَلْقٌ عظيم. [هذا صورة ما ذكره جدي في «المنتظم»][٥].

---

(١) له ترجمة في «الوافي بالوفيات»: ١/ ١٤٤.

(٢) مدينة اختطها العرب قرب رستقباذ في خوزستان، وتنسب إلى مكرم بن معزاء الحارث صاحب الحجاج بن يوسف الثقفي، وخوزستان هي المعروفة الآن بعرب ستان، أي إقليم العرب، وقد زال اسم عسكر مكرم من الخارطة، ولكن موضعها تشير إليه الخرائب المعروفة باسم بندقير أي (سد القير) حيث يلتقي آب كركر بنهر كارون، انظر «معجم البلدان»: ٤/ ١٢٣، و«بلدان الخلافة الشرقية»: ٢٦٧، ٢٧١ - ٢٧٢.

(٣) له ترجمة في «الأنساب»: ٣/ ٤١٠-٤١١، و«المنتظم»: ١٠/ ١٠١، و«معجم البلدان»: ٢/ ١٩٩، و«الكامل»: ١١/ ٩٠، و«اللباب»: ١/ ٣٢٢-٣٢٣، و«مختصر ابن عساكر» لابن منظور: ٢٧/ ٦٥، و«معرفة القراء الكبار»: ٢١/ ٩٤٥-٩٤٦، و«سير أعلام النبلاء»: ٢٠/ ٩٨-٩٩، وفيه تتمة مصادر ترجمته.

(٤) ما بين حاصرتين من (م) و(ش).

(٥) «المنتظم»: ١٠/ ١٠١.

وذكره الحافظ ابن عساكر، وقال: ابن طاوس][1] كان إمام جامع دمشق [سمع أباه وأبا العباس ابن قُبيس، وقيل: لم يلحقه، وكان قد قرأ القرآن بالسبعة على أبيه، وكان يؤدِّبُ الصبيان بسوق الأحد، فلما انتصب لإمامة جامع دمشق ترك ذلك، وكان ثقة، حسن الصَّوْت بالقرآن، صحيح الاعتقاد][1].

قال ابن عساكر: أنشدنا لعلي بن أحمد النُّعيْمي البَصري[2]: [من المتقارب]

إذا أَظْمَأَتْكَ أكُفُّ اللِّئامِ ... كَفَتْكَ القناعةُ شِبْعاً وَرِيَّا
فكُنْ رَجُلاً رِجْلُه في الثَّرى ... وهِمَّةُ هامتِهِ في الثُّريا
أبيًّا لنائِلِ ذي ثَرْوَةٍ ... تراه بما في يَدَيْه أبيَّا
فإنَّ إراقةَ ماءِ الحيا ... ةِ دونَ إراقةِ ماءِ المُحَيَّا

السَّنة السَّابعة والثلاثون وخمس مِئة

فيها بعث سنجر إلى مسعود يأمره بالتَّصرُّف في الرّي والمقام بها بحيث إنْ دَعَتْه حاجةٌ استدعاه؛ لأَجْل ما نُكِبَ به من الخطا.

وأمر الخليفةُ أن لا يُخاطب أحدٌ بمولانا الوزير.

وولى القاضي الزَّينَبي أبا يعلى محمد بن محمد بن الفَرَّاء قضاء واسط، وخرج إليها.

وفيها جمع سنجر العساكر، وعَزَمَ على قصد خوارزم شاه، وكان ملك الخطا قد عاد إلى بلاده، وجاء سنجر، فنزل على جيحون، وقال: لا بُدَّ من العبور إلى خوارزم شاه. وجاء خوارزم شاه إلى جانب جيحون، وبعث إلى سنجر الأموال التي أخذها من بَلْخ، وصناديقَ الجَوْهر، وضَمِنَ له مالاً، وقال للرسول: قُلْ له احقنِ الدِّماء، فإنَّ عَوْدَ

(١) ما بين حاصرتين من (م) و(ش).

(٢) كان النعيمي حافظاً عارفاً، متكلماً شاعراً، توفي سنة (٤٢٣هـ)، له ترجمة في «تاريخ بغداد»: ١١/ ٣٣١-٣٣٢ ـ والأبيات فيه ـ و«سير أعلام النبلاء»: ١٧/ ٤٤٥-٤٤٧ ، و«طبقات علماء الحديث» لابن عبد الهادي: ٣/ ٣٠٥-٣٠٦ ، وفيهما تتمة مصادر ترجمته.